لقطات فلسطينية؛ إرثٌ من الدماء والنور و«النيغاتيف»

ينشر موقع KHAMENEI.IR الإعلامي تقريرًا يُلقي الضوء على تاريخ اللقطات الفوتوغرافية الفلسطينية، مُبيِّناً كيف تحوّل التصوير الفوتوغرافي من أداة غربية لرسم صورة زائفة لـ«أرض بلا شعب» إلى سلاح دفاعٍ عن الواقع الفلسطيني.

في السنوات المظلمة من أوائل القرن التاسع عشر، عندما كان العالم بعد نابليون لا يزال يحلم بإعادة بناء نفسه، اخترع جوزيف نيبس ولويس داجير الواقع في أعماق غُرفهما المظلمة. أصبح التصوير الشيء الأكثر واقعية الذي شوهد في العالم حتى ذلك اليوم. كان يمكن للصورة أن تحبس الواقع في إطار صغير، وتقدّمه للمشاهد بلا واسطة، كما تصور الجميع في البداية.

في عام ١٨٣٩، توجّه رسّامان فرنسيان إلى مصر أملاً في تصوير أرض الفراعنة فوتوغرافياً، ومن هناك وصلا إلى القدس؛ كانا أول من سجّل المشاهد الدينية لهذه المدينة. من هناك بدأت موجة التصوير الفوتوغرافي لـ«الأرض المقدسة»، وفي أقل من عقد من الزمان، توجّه مئات المصورين من أنحاء العالم كافة إلى فلسطين؛ الأرض المقدسة للأديان الإلهية الكبرى كلها.

لكن في اللقطات الأولى، لم يكن هناك أثر للناس. كان من المفترض أن تروي هذه الصور قصة الأرض الخالدة للكتاب المقدس، لا قصة شعبها الحيّ والمتحرك. المباني والمعالم المعمارية احتلت اللقطات، دون أن يكون سكان فلسطين في الصورة. إذا ما ظهر وجهٌ أحياناً، فإنه كان مجرد مؤشر لإظهار عظمة البناء. كانت هذه الأرض في اللقطات الأوروبية أرضاً مقدسة ولكنها خالية من البشر. وفي مفاجأة للجميع، رسّخت هذه اللقطات الفارغة نفسها في أذهان العالم قصةً جديدة للأرض المقدسة. أرض كان من المقرر أن تبقى في الخيال إلى الأبد؛ بلا شعب، بلا وجه، وجاهزة للاحتلال التالي.

اللقطات الأولى؛ عندما اختُرعت الحقيقة

كانت خمسينيات القرن التاسع عشر وستيناته عصر ازدهار التصوير الفوتوغرافي. لقد حوّلت الحرب الأهلية الأمريكية التصوير إلى وسيلة إعلامية مؤثرة، ولكن في الأرض المقدسة، كان للكاميرات مهمة أخرى: البحث عن أدلة عينية لقصص الإنجيل. التُقطت اللقطات منذ البداية مع إقصاء الناس؛ مصورون نهضوا من رماد الحروب الصليبية ليفتحوا هذه الأرض مرة أخرى؛ لقطة بلقطة. في غضون ذلك، كانت قرون من السيطرة العثمانية على فلسطين تقترب من نهايتها. بدأت هجرة اليهود. وفرت الصور، دون أن تُظهِر الناس، للمهاجرين صورة للأرض المقدسة.

في تلك اللقطات الخالية من السكان، تشكلت الرواية الأولى لـ«أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». تحول التصوير الفوتوغرافي من تسجيل الواقع إلى أداة لاحتلال الواقع. انتهت الحرب العالمية الأولى، ذلك الوحش الذي ابتلع كل شيء، بوعد بلفور وولادة «إسرائيل». كان الجنود البريطانيّون يسيرون في أزقة القدس، ودوّى صوت مصاريع كاميرات اليهود - الأوروبيين في الأجواء مرة أخرى. أظهرت الصور الجديدة ذات المناظر القديمة، ولكن هذه المرة مع حواشٍ غيّرت هويتها. انقلب الواقع رأساً على عقب. أُقصِيَ الناس، ومُحِيَ التاريخ، وتحوّلت اللقطة نفسها إلى سلاح استعماري.

احتلال الصّورة، احتلال الأرض

لكن في قلب بيت المقدس ذاته، وفي العقد الأخير من القرن التاسع عشر، تأسست مدرسة صغيرة؛ مدرسة أُنشئت في باحة كنيسة القديس جيمس، ودرّبت الجيل الأول من المصورين الفلسطينيين. بنى غارابيد كريكوريان، التلميذ المثابر لهذه المدرسة، أول استوديو للفلسطينيين في شارع يافا، وصوّر الناس، الوجوه، الطقوس، الحياة. بعد سنوات، ظهر جيل جديد من المصورين الفلسطينيين؛ فضيل صبا، خليل رعد، وكريمة عبّود. لقد خرجوا من الاستوديوهات، على عكس الجيل الذي سبقهم، وحموا البيوت والشوارع بكاميراتهم. لم يكن التصوير بالنسبة إليهم هواية، بل دفاعاً، دفاعاً عن واقع حُذِفَ من اللقطات الأخرى.

أعاد فضيل صبا، مصور الطقوس والنساء الحاملات لقِرب المياه من عين العذراء، الحياة إلى اللقطات. كما تحوّل في لقطاته، الطقس الذي كان يذكّر أهل الناصرة بالخصوبة والإنتاج، إلى تعبير ثقافي عن استمرارية أمة. وقف خليل رعد، حارس بساتين البرتقال في يافا، في وجه اللقطات الزائفة التي كانت تقدّم البساتين على أنها من إنتاج اليهود. كانت صوره للعمال والمزارعين الفلسطينيين رداً هادئاً وصبوراً على احتلال الصورة. أصبحت كريمة عبّود، ابنة بيت لحم، أول مصورة فلسطينية تكسر المحرمات، فهي سافرت بكاميرتها التي اشتراها لها والدها إلى مدن فلسطين، ووضعت أصوات نساء أرضها ورجالها في لقطاتها. عندما مات أخوها تحت تعذيب البريطانيّين، قررت كريمة أن تستمر في التصوير حتى آخر رمق. أوصت بأن لا تُدفَن كاميرتها معها، بل أن تبقى لترى أشياء لن تراها هي بعد ذلك.

العيون التي أفاقت

بعد النكبة، لم تُطفَأ الكاميرات في فلسطين. كان كيغام جغليان، في أيام احتلال غزة، يصور من خلف البطانيات على نافذة منزله. التقط صوراً للنازحين، لصفوف الطعام، ولعب الأطفال في الخرائب. كانت لقطاته وثيقة حية على تغيّر وجه المدن، من الفرح إلى الدمار.

لكن عندما تُجوهِلَت الرواية الفلسطينية، عادت الكاميرات الغربية. لقد عرض ميشا برعام ومصورو مجلتي «لايف» و«تايم» لقطات انتصار «إسرائيل» للعالم. حلّت الصور الملونة للحرب التي استمرت ستة أيام واحتفالات النصر محل لقطات المعاناة والنزوح. مرة أخرى، صُنِعَ الواقع في استوديوهات القوة.

مع ذلك، في خضم هذا الظلام، نهض جيل جديد. شبان ترعرعوا في المخيمات، وباتوا يصرخون بهويتهم بالحجر والكاميرا. كانت الانتفاضة انتفاضة عيون أفاقت. أسامة سلوادي كان أحدهم. بدأ بتصوير الورود البرية واستمر بغليان الدم والغضب والانتفاضة.

وصلت صوره للمواجهات بين النساء والجنود الإسرائيليين وللمظاهرات وصرخات الشوارع، إلى العالمية. كان مصوراً في هيئة قنّاص؛ صياداً للحظات الموت والحياة. بعد سنوات من التعاون مع وكالات الأنباء الدولية، بنى سلوادي حلمه الخاص: وكالة أنباء يكون موظفوها جميعهم فلسطينيين. لكن الرصاص الذي اخترق جسده، أقعده على كرسي متحرك. مع ذلك، استمر في التصوير؛ هذه المرة لتراث فلسطين وثقافتها. كان يؤمن بأنه إذا سلب العدو الأرض، ربما يمكن استعادتها يوماً ما، ولكن إذا ضاعت الهوية والثقافة، فقد ضاعَ كلُّ شيء.

إرثٌ من الدّم والنّور

اليوم، عندما تشتعل نار الحرب مرة أخرى في غزة وفلسطين، يرى العالم الصور، ولكن هذه المرة إنّ الرواة هم الفلسطينيون أنفسهم. لقد واصل مصورون شبان مثل فاطمة شبير، ومحمد سالم، ومعتز عزايزة إرث كريمة عبّود وخليل رعد وكيغام جغليان. لقطاتهم هي استمرار لذاك التاريخ؛ لقطات للأطفال في برد الحرب، وللأمهات الثكالى، وللجدران المنهارة، ولبساتين البرتقال والزيتون.

هذه الصور تصرخ: نحن هنا وهذه أرضنا

ليست اللقطات الفلسطينية مجرد صور، بل هي التاريخ الحي لأمة؛ تاريخ كُتِبَ بالدم والنور و«النيغاتيف». من الغرف المظلمة في باريس إلى شوارع غزة المدمّرة، هناك مسار مستمر: محاولة للرؤية وللبقاء وللرواية. في عالم تعلّم من اللقطات الأولى كيف يصنع الواقع، تعلّم الفلسطينيون كيف يسترجعونه.

إنهم مستمرون حتى الآن - في كل صورة تُلتقط لخرابة، في كل وجه ينظر خارج اللقطة. كأن روح مصوري تاريخ فلسطين قد بُعِثَت في أجساد أبنائهم.

في خضم الغبار، هناك نور لا يزال يسطع. في كل «نيغاتيف» مرّ بالدم، ارتسمت صورة حية للأرض الأبوية: فلسطين، بلقطاتها كافة.

شبان ترعرعوا في المخيمات، وباتوا يصرخون بهويتهم بالحجر والكاميرا، كانت الانتفاضة انتفاضة عيون أفاقت

ما بعد حرب غزة.. «إسرائيل» إلى مزيد من التشرذم

أحمد شعيتو
موقع العهد الإخباري

منذ ما قبل عملية طوفان الأقصى شكلت سياسات بنيامين نتنياهو الداخلية محور تجاذب داخلي كبير ومعارضة رأي عام واسع، وجاء طوفان الأقصى ثم الأحداث المتسارعة في الأراضي المحتلة والمنطقة والحرب الطويلة في غزة ومسارها لتعمّق الشرخ الداخلي وصولاً إلى زعزعة الائتلاف الحكومي نفسه. تشهد المرحلة الحالية بعد إعلان وقف إطلاق النار ملامح تفاعل أكبر لهذه الخلافات تُضاف إلى الواقع الذي نتج عن حروب نتنياهو على المجتمع الصهيوني، حيث ستتعالى الأصوات ضد نتنياهو لمحاسبته ومحاكمته على الفشل في طوفان الأقصى وما بعده وهو الملاحق بمحاكمات بتهم الفساد.

أسئلة عديدة حول المسار الداخلي الصهيوني والمرجح فيها واحد هو ذهاب الكيان العبري إلى مزيد من التشرذم مع مرور الوقت جراء الفشل في أكثر من ميدان ونتيجة سياسات نتنياهو وحلفائه التي خلقت أزمة ثقة واسعة لدى الرأي العام الصهيوني بحكومته بل بالكيان ككل، والذي تأثر أمنياً واقتصادياً واجتماعياً في العامين الأخيرين، حيث ضعف الاقتصاد بشكل كبير وتنامت الهجرة العكسية بأعداد غير مسبوقة جراء الاهتزازات الأمنية وفقدان الشعور بالأمن لدى المستوطنين.

ورغم ما تعرض له محور المقاومة من خسائر على يد التحالف الأميركي الصهيوني الذي ألقى كامل ثقله لإضعاف المحور، فقد تعرض الكيان العبري أيضاً لضربات كبيرة وتاريخية، ولا شك أن فشل أهداف الحروب الصهيونية في المنطقة وما تعرضت له الجبهة الداخلية من أوضاع وظروف غير مسبوقة إضافة إلى فشل الحرب الصهيونية على غزة لعامين في القضاء على المقاومة، كلها ستلقي بظلالها على المجتمع الصهيوني، في كيان ثبت في المرحلة الأخيرة أنه غير منسجم في مكوناته، وأنه كيان يعتمد على القوة الأميركية عسكرياً وسياسياً ليغطي على مكامن ضعفه.

في عناوين الانقسام الصهيوني المؤثرة نذكر هنا:

- خلافات متصاعدة بين الحكومة والجيش ظهرت أكثر منذ الفشل في التصدي لعملية طوفان الأقصى وما بعدها من حرب في غزة والمنطقة.
- خلافات داخل الائتلاف الحكومي نفسه كادت تطيح بهذا الائتلاف عند أكثر من منعطف.
- تصاعد التجاذب بين المعارضة الصهيونية والحكم واستغلال المعارضة لضياع حكومة نتنياهو وفشل الجيش في أكثر من مجال خلال العامين الأخيرين.

الاقتراب من الانتخابات.. ما التأثير؟

يشير الخبير بالشؤون الإسرائيلية عباس إسماعيل في حديث لموقع العهد إلى أن «الانتخابات في إسرائيل تقترب، وبالتالي سيصبح الخطاب السياسي انتخابياً والمواقف مرتبطة بالاعتبارات الانتخابية، كما تصبح الكتل الممثلة بالكنيست والمنضوية داخل الحكومة أكثر تحررًا من قيد البقاء من الحكومة ومن الأسهل عليها الخروج من الحكومة»، ويعتبر أن «احتمال فرط عقد الكنيست والذهاب إلى انتخابات مبكرة متعلق بمجموعة من التحديات التي تواجه الحكومة، مع الإشارة إلى أن لا أغلبية لديها في الكنيست، وإذا صوت حزب شاس ضدها في الكنيست تفقد الأغلبية».

هذه الملفات هي «تجنيد الحريديم، الموازنة، الحرب في قطاع غزة، وملف القضاء.. إذا نجحت الحكومة الإسرائيلية في تخطيها تكمل ولايتها وإن لم تنجح تذهب إسرائيل إلى انتخابات مبكرة».

الخلاف الداخلي والتشرذم بعد طوفان الاقصى خبا قليلًا ولكنه الآن عاد ليطل بقوة بحسب ما يشير إسماعيل؛ لأنه انقسام بنيوي ومتجذر وليس طارئًا، وبالتالي إذا كانت الحرب قد خففت من وطأته فإنه عاد ليظهر من جديد بعد الحرب، بل زاد عليه موضوع الموقف من الحرب.. إذًا سنشهد بحسب إسماعيل «في المرحلة المقبلة مزيدًا من الانقسام إذا أرادت الحكومة أن تمضي قدماً في موضوع تدجين القضاء وتغيير القوانين والسيطرة على مجموعة من مراكز القوة داخل السلطة في إسرائيل، وهذا يعني أن المجتمع ذاهب إلى مزيد من الانقسام والتشرذم، خاصة أن تداعيات حرب غزة لم تنتهِ إلى الآن، وهذا يلعب دورًا في الأوضاع. إذًا نحن أمام استمرار حالة التشرذم في إسرائيل والمزيد من المشاكل والأزمات لا سيما أننا اقتربنا من عام الانتخابات».

سياسات نتنياهو تغذي الانقسام

هنا يؤكد الخبير في الشؤون العبرية حسن حجازي في حديث لـ «العهد»، أن «الانقسام الصهيوني متعلق بتأزم الوضع الأمني والسياسي نتيجة سياسات نتنياهو، وهذه الحرب أظهرت مجموعة من نقاط الضعف الأساسية الإسرائيلية».

ويحدد حجازي «عاملين أساسيين في التشرذم والانقسامات المتزايدة في هذه المرحلة، هما:

- مواضيع الصراع في في فلسطين والمنطقة واختلاف النظرة حيال المسار الناجح للحرب، يضاف إليها أزمة تجنيد الحريديم.
- «التفرد بالسلطة وتحجيم المحكمة العليا ومحاولة السيطرة على قادة الأجهزة، إذ يرى معارضو نتنياهو أنه يقوم بتحويل النظام إلى نظام ديكتاتوري».

يشير حجازي إلى أنه «في مرحلة ما بعد وقف الحرب سيكون مسار الأمور السياسية والانتخابية متعلقاً بطبيعة مسار الاتفاق في غزة، فإذا بقيت حماس حاضرة في القطاع ولم يكن الاتفاق قادراً على تغييبها فشعبية نتنياهو ستتراجع بشكل كبير، وهذه القضية ستنعكس بشكل واضح على الوضع الداخلي لا سيما أننا اقتربنا من الانتخابات».

ويؤكد حجازي «أن مسألة استغلال المعارضة لهذه القضية مرتبطة أيضاً بالنتائج، حيث ستثبّت فكرة أن نتنياهو ورط إسرائيل في حرب طويلة دون نتائج ودون تحقق الأهداف وهذه الأمور ستستغلها المعارضة لاتهام نتنياهو بالفشل والإخفاق، أما إذا لم يقيد الاتفاق إسرائيل كثيراً وذهبت إلى نوع جديد من العمليات واستطاع نتنياهو تثبيت مزاعمه بأن الحرب حققت إنجازات فسيحاول تقديم موعد الانتخابات».